علاقة مشبوهة

محمود حسن عزوز ❖

وقفتُ هذا الصباح أندب حظّي العاثر. «فاتتكَ فرصةٌ ثمينة،» قال وهو يَنْفث في وجهي دخانَ سيجارته، مشيرًا إلى حَمَلٍ مُلقًى على الأرض، سُلِخَتْ فروتُه، وأُمعِنَ في نفخه حتى كادت تتفتّق جوانبُه، تشوبه حمرةٌ خفيفةٌ، وتبرز عظامُ رقبته بين شرايينَ نُحرتْ بحنكةٍ وصرامة.

منذ عرفتُ الرجلَ صار الحفلُ الدامي مرتعي وملاذي. فقد أورَثتْني طقوسُه المثيرةُ نوبةَ الاستغراق، وخدرًا يسري في أوصالي ما إنْ أَظفر برؤية الدماء تسيل وتتطاير من الذبيحة التي وقعتْ في قبضةِ مَنْ لا يَرْحم.. تتلاطم مستميتةً، وهي تضرب الأرضَ بحوافرها. تحاول أن تتّكئ على جانبها، وتفزّ على أربع، لتعقُبَ ذلك بخوارٍ يتعالى رهيبًا، قبل أن ينسابَ خافتًا ويختفي.

ولئن أَوغلتُ في اجترار دقائقه وتركتُ روحي تستقطر اللّذةَ عبر تناقضات مريعة، فإنّ ما فاتني لا يُعوَّض حقّاً. «لا تغتمَّ يا صديقي،» استطردَ قائلاً وقد حطّ بقدمه على بطن الذبيحة، «ثمّة ما يسرّ القلبَ بعدُ.» وبحدّةٍ لا تخلو من زجرٍ وتعنيفٍ، انتزعَ السكّينَ من قبضة الصبيّ الذي يقف عن كثب يقلّبها بين يديه فيعكس نصلُها اللامعُ وجهَه محملقًا، ثم انحنى وغوّر في اللحم، فأحدثَ شقّاً طوليّاً نبتت الأحشاءُ على إثره، وتدفّقت المياهُ بغزارةٍ، إلى أنْ طرح الصبيُّ الخرطومَ من يده، وانكبَّ يحمل جانبًا المعى والمصارينَ.

مال مرةً أخرى يجتثّ من أصلِه آخرَ شريانٍ يَعْلق به القلبُ، ثم تلقّى هذا الأخيرَ في قبضة يده، حبّةَ كمثرى حمراءَ وكبيرةً، تنزّ منها الدماءُ وتتسرّب من بين أصابعه، وهو يديره نحوي باسطًا كفّه في حذر. ينظر إليّ ويهزّ رأسَه هزّاتٍ رزينةً متعاقبةً، وقد كفّ بؤبؤا عينيه عن الحركة والدوران، وتألّقا بنشوة غريبة، حتى عاجلتْه «كحّةٌ» صدعتْ صدرَه الواهن، راح يعمل على تقويضها ويحتوي تبعات دونها حدّة وضراوة. ترنّح جسدُه، وكاد أن يتعثّر، رافضًا يدي الممدودةَ إليه، حتى حاز قدرًا من التماسك. شهق بعمقٍ ضاقت به صدريّتُه، وكان وجهُه وعيناه تَعْبق بالدماء.. وقبل أن يهمّ بأعضاء أخرى، ينتزعها كما الحواة، قال بغرورِ خصمٍ واثقٍ بانتصاره:

ـ أنا رجل «دوغري» أذبحُ في النور وفقَ الشريعة.

أطوارُه الغريبة تثير الدهشةَ والحيرة. أجدني مشدودًا إليه، بينما يُعْرض عنه الآخرون. يُحذّرني منه إخوتي الكبار، أصحابُ المراكز المرموقة. ينسَوْن أنّه كان صديقًا حميمًا للمرحوم أبي، وأنّه قد سبقه إلى التقدّم إلى أمّي حين كانت لا تزال فتاةً يسعى الكثيرون إلى الاقتران بها. وهم يعارضون بشدّة أن أذهب إلى بيته، لأدوّن حساباتِ المحلّ وأعلّمَ طفلتَه الصغيرة. «هو جاهل. يَكْبرك في العمر، ويُضْمر الكراهيةَ لكلّ الناس،» يقولون كلَّ مرّةٍ، ثم ينقلبون عليّ غاضبين.

أمّي نفسُها تخلّت عنّي في الفترة الأخيرة، مبدّدةً مأثرَ يحظى بها عادةً آخرُ العنقود: «فاكِرْ حالَكْ لسّه صغيَّر؟ باقي لك سنة وتدخل الجامعة.» وتضيف بسخرية وتهكّم: «ده إذا فلحت!» يصيبني كلامُها في مقتل، ويغمرني قهرٌ عميقٌ يدفع بي إلى التشبّث بتصلّبي وعنادي. أحيانًا يحلو لي أنْ أجرّه إلى الحديث عن أبي، فيردّ بكلماتٍ مقتضبةٍ تنعى رفقةَ العمر القصير، ثم يقول وقد أخذ يَفْتل طرفَيْ شاربه العريض: «دعنا من نبش الماضي...» يكرّرها أكثرَ من مرّة، مخلّفًا ظلالاً من الشكّ والريبة. تعاوده نوباتُ المرض ويتعافى منها بقدرةٍ قادر، إلاّ أنّ رقدته الأخيرة أعقبت ارتجافًا نال من خفّة يده وشطارتها، وفاقمتْ من ضعفه ونحوله: وجه ناشف، ناتئ الوجنتين، وجسدٌ ممصوص تروّعه «كحّة،» يعوّل على ساقين هزيلتين تتأرجحان في سروال طويل، بينهما «حَجَرٌ» يراوح متثاقلاً، ولا يبعد عن سخرية يجد فيها أهلُ حارتنا متنفّسًا لظرفهم ونكاتهم. أما لو جادله أحدُهم ونصحه بأن يستعين بلحّام آخر موفور العافية كي يركن هو إلى الدعة والراحة، فإنّه يَقْلب سحنتَه، وينظر إليه بغضب، ثم يبرز من جيب صدريّته ورقةً قديمةً مفرطةَ الهشاشة، ويقول بثقةٍ كبيرةٍ بعد أن يفردها أمامه: «انظر.. أنا من سلالةٍ معمّرةٍ جاوز معظمُ أفرادها المائة.»

لا يَمْلك محدّثُه إلا أن يمسحَ بنظراته أسماءَ الآباء والأجداد، ويتوقّفَ مليّاً حيال خانة العمر عند الوفاة. تراه يحبّ الحياة أمْ يكرهها، يحتفي بها أمْ يزدريها، حين يُصرّ على أن تجري العمليّةُ برمّتها ـ على حدّ قوله ـ في ساعةٍ مبكّرةٍ من الصباح، وعلى مرأىً من حشد من المارة، وحين تكون جلُّ ذبائحه من الحملان والخرافِ الصغيرة؟!

❖ ـ كاتبٌ من مصر مقيمٌ في بيروت.

لحقَ بي، آتيًا من داخل المحلّ، وقد ارتدى جلبابًا صوفيّاً غامقَ اللون. وعلى الطَّوار [الرصيف] المقابل حيث نجلس، جيء بالشاي من مقهى قريبٍ، وأرجيلةٍ يَحْرص على تعاطيها صباحَ مساء. أَخرَج قطعةَ الحشيش من جيب صدريّته وقضم منها بأسنانه، ثم تلقّف «الحنّة» بين الإبهام والسبّابة، وراح يضغطها ويدحوها حتى استوت «حجرًا» طَعَّمَ به كرسيَّ المعسّل. كان الصبيّ يجثو على ركبتيه، يزيل عن البلاط بقعًا من الدماء التصقتْ به: يجرّب برشاش الماء، ثم يَكْشط ما بقي منها بأظافره الصغيرة. حينها عَبرت الطريقَ فتاةٌ كاعبةُ النهدين، تتأبّط شنطةَ كتبها، وتنحسر تنّورتُها الزرقاءُ عن ساقين رفيعتين بيضاوين، إلا أنّ مؤخّرتها استأثرتْ باستدارةٍ وامتلاء، اتّكأتْ عليها نظرتُنا المشتركة، ولما التقت عيونُنا قال:

ـ تجرّب حظّك؟

تردّد البصرُ بينهما: الفتاة والذبيحة المعلّقة في واجهة المحلّ. وخطرتْ ببالي سَمَرُ، آخرُ زوجاته الصغيرات، زهرةُ حارتنا، تُقاربُني في العمر لكنّي أدعوها بـ «أبله» فتنعتني بـ «الأستاذ» وهي تجزّ على أسنانها، الأمرُ الذي يوقعني في الحَرَج والحيرة. باغتتني رجفةٌ أيقظتْ خيالي النزق، وإذا بها هنا، في مكانٍ ما في رأسي، تَخْلع جلبابَها الفضفاضَ المنزوعَ الأزرار عند القَبَّة، وتتهاوى عاريةً، فيتراقص ثدياها اليافعان، وتنتعظ حلمتاها وتثقبان الفراغ. لفحني صهدٌ متّقد استقرّ بين فخذَيّ، وجعلني أُحلّق مثلَ ريشةٍ اعتراها الطربُ حتى كاد أن يغرّد طائرٌ حبيسٌ...

ـ إييه، أنت، سألتك، تجرّب حظّك؟

قلتُ ذاهلاً:

ـ لا حظّ لي والمعلّمُ إلى جواري.

انفرجتْ أساريرُه وانبثقتْ من عينيه تلك النظرةُ المترعةُ بالنشوة الغريبة، ثم قال:

ـ ما بقي البارحة من فخذة العجل، والعكوة، والكارعان، وليّة الخروف، أضف إليهم الكرشة والمصاريف... والمصارين.. يصبح المجموع (مسترسلاً بعد تريّث) ٤٥ كيلو.. وزن «الأمّورة» التي مرّت بالتمام والكمال.

انتفختْ أوداجُه. أخذ في تبريم طرفَيْ شاربه العريض ـ وهي عادتُه إذا نازعتْه خُيلاءُ، وراقت له عباراتُ الإطراء ـ عامدًا إلى لَيِّهما إلى الأعلى. اختلستُ النظر إلى ساعتي، ثم انتفضتُ واقفًا مبديًا الرغبةَ في الذهاب إلى المدرسة. وقبل أن أغادر، قلت جادّاً هذه المرّة:

ـ أريد منكَ أن تعلّمني طريقةَ الذبح.

أجاب دون تردّد:

ـ شرط أن تعلّمني القراءةَ والكتابة.

ثم استدرك:

ـ لا. لا أشترط عليك، هو رجاء.. تعرف أنّ أبي لم يرغبْ في «عَلامي» بينما أبوك انطلق كالصاروخ.

قال كلمتَه الأخيرةَ وأطرق صامتًا.

لمّحتُ إلى أمر... نظر إليّ من غير أن يُظهر تبرُّمًا أو نفورًا:

ـ تقصد العمر!.. لا أُنكره ولا أتوقّف عنده، ربّك كبير يسبّب الأسباب، خلّى الفكرة «تخيّش» في نافوخي ليلة البارحة. كنتُ أبحلق في شهادة الصغير وهو يدوّرها بين يدَيَّ من غير أن أفقَه منها شيئًا، وكانت الحرمة تنظر إليّ بـ «احتكار».. ثم إنّي... أنت نسيت يا رجل؟!...

ودسّ يدَه يُخْرجها من جيب صدريّته: الورقة نفسُها متهالكةُ الثنيات. فَرَدَها أمامي ودعاني إلى النظر فيها.

بسطتُ يدي أصافحه، وكانت كفُّه رخوةً وباردة.

بيروت